من أجل تربية وتعليم، لمجابهة منطق التماثل، بمنطق الاختلاف، كفضاء للحرية والحوار

العولمة والتربية: المواجهة الثقافية للسيطرة الأحادية

العولمة منذ البدايات التي أطل بها هذا المصطلح قد رافقته مصطلحات السقوط والنهاية، نهاية التاريخ والإنسان والثورة، نهاية الحكايات الكبرى والسرديات الثورية والتنويرية، نهاية الحلم بالتغيير، نهاية اليوتوبيا، سقوط الجغرافيا وانتهاك الحدود الجغرافية والسياسية والأخلاقية، اندثار الدولة القومية والسيادة الوطنية والهوية الثقافية لجماعات وشعوب العالم الثالثي، وسكان الهوامش في العالم الأول وتوابعه.

إنها الصيغة المقترحة لتفرض على شعوب الأرض من منظور واحد لا يرى في الآخرين أنداداً، ولا يعترف لهم بحق الاختلاف، ولا يؤمن بأهمية الحوار معهم، صيغة لحياة منمطة وإنسان مُؤَدْوت، وزمن مفرغ من تاريخيته وتاريخ فارغ من فاعليته، أناس منزاحون ومستلبون ليس عن السلع التي ينتجونها ويستهلكونها فحسب، بل كذلك عن أنفسهم وخبراتهم ومشاعرهم وإبداعيتهم ورغباتهم، الناس متفرجون على واقعهم عبر سحب إلكترونية وزخات من الصور، يختبرون واقعهم من موقع إزاحة، ومن مسافة تغربه عنهم، وتغربهم فيه، ما يجعل العولمة بازاراً: كل شيء موجود فيه. "الحياة ذاتها" هي الغائبة بقوة.

العولمة في سياق هذه الرؤية ليست اقتصاداً فحسب أو سياسة، بل هي حكاية سيطرة تتداخل فيها الاقتصاديات بالسياسات، والسرديات بالمصالح، والنزعات الطغيانية اللاواعية بالطموحات الفردية للزعماء والمصالح القومية للأمم القوية، حكاية تنتج ضحاياها وأدواتها، كما تنتج فصول التفوق العرقي والتمركز الثقافي والسيطرة القومية والطبقية على "الأغيار"، ما يجعل من عملية مواجهتها ومقاومتها حكاية أخرى لا تقتصر على ساحة الاقتصاد فحسب، بل يجب أن تمتد إلى كل المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وما وراءها، إلى الافتراضات الثقافية، وبنيات المعنى، وأنساق المعرفة، ومنظومات الإدراك والتفكير وأشكال التواصل وآليات الاتصال، حكاية تعطي دور الفاعل والحالم لمن أعطوا في الحكاية الأولي دور الضحية، ليعيدوا إنتاج فصول الانفتاح والحوار على قاعدة الاختلاف والاعتراف، بدل فصول التمركز على الذات والتفوق العرقي أو الثقافي والسيطرة السياسية أو الاقتصادية، من خلال استعادة تملكهم للعالم عبر إعادة كتابة نص العالم، لا الاكتفاء بقلبه فقط، فقلب النص فقط يعيد توزيع الأدوار دون تغييرها، في حين أن النضال من أجل تغيير العالم عبر إعادة سرده من جديد لا يوفر للفاعلين إنتاج نص جديد للعالم فحسب، بل وإعادة إنتاج أنفسهم كحالمين ومغيِّرين.

إن العولمة أقرب ما تكون إلى محاولة لحشر العالم في صيغة واحدة ونمط خاص، في حين أن العالمية أقرب إلى البازار الضاجّ بالتعدد والتنوع، والمقاربة بين النموذجين تماثل الموازنة بين عملية الفرض والاستعمار والهيمنة من جهة، ويوتوبيا التحرر من جهة أخرى. لنرى الموقع المناسب والمكان الفاعل لنتموضع فيه، ولا نترك للآخر فرصة موضعتنا في المكان الذي يجعل وجودنا من أجله لا من أجلنا.

مدرسة مغايرة وثقافة تربوية مقاومة

بين الصيغة الواحدة للعولمة وتعددية العالمية كفضاء للتحاور، تبقى التربية والمدرسة ساحتين من ساحات المواجهة الرمزية، فعلى صانعي السياسات التربوية والفاعلين في المدارس، الإدراك أن المدرسة لم تعد ناقلة للمعلومة، فالطلاب لم يعودوا في حاجة لمن يزودهم بالمعلومة، وإنما يحتاجون لمناخ يمكنهم من نقد منظومات المعرفة ومساءلتها، ولذلك فعلى المدرسة أن تعتني بدورها النقدي والتساؤلي والتقويضي، لما تهطل به مصادر المعرفة المتعددة من معارف ومعلومات مغلفة بأغلفة الحقائق والأفكار، ما يجعل من المدرسة مختبراً ثقافياً يحلل الحزم المعرفية والمعلوماتية ليستدخل منها ما يغني الثقافة الجماعية، ويقوي الحياة المجتمعية.

فكيف، وأين؟ نموضع المدرسة ونعيد تشغيلها لتنتظم كجهة فاعلة ومحورية في منظومة مجتمعية تتصدى لسحب وشبكات المعلومات والفضائيات، وما تصدره من خطابات معولمة وسرديات وصور مفبركة واستعراضات ثقافية موجهة، تتصدى لها في مواجهة مفتوحة تمكننا كأمة من التفاعل مع العالم ككل، دون الانزلاق إلى مخاطر الانغلاق على الذات أو الانفتاح بدون ذات، ما يمكننا من صيانة هويتنا الجمعية عبر رفدها الجماعي بهويات فردية، تحقق لكل ذات إطارها الجماعي، كما تحقق تفردها الذاتي، وتحقق للجماعة وجودها الاجتماعي وسيرورتها التاريخية ودورها العالمي.

مدرسة عابرة للعولمة وشروطها شرط ضروري لمواجهة الاحتكارات والفضائيات العابرة للجغرافيات والثقافات.

كيف نغاير تربية العولمة بالتأسيس لتربية مغايرة تؤسس لعالمية متعددة الأقطاب والثقافات عبر مدرسة عابرة لفكر العولمة، ومتجاوزة لشروطها القاهرة، مدرسة للتثقيف لا للتدريب، مدرسة لا تسعى لإنتاج طلاب مدربين ليكونوا عمالاً في الاقتصاد الجديد، ولا سياسيين يسعون لدخول نادي النخب المتعالية، ولا مستهلكين وعبيد بل مثقفون ثوريون يجددون في الحياة والثقافة، مدرسة تخترق المجتمع المنظم من أجل الكفاءة لصالح مجتمع مبني على سؤال الحرية، مدرسة تناوئ النظام الذي يقدم للناس السلع الاستهلاكية ويسميها حرية، النظام الذي يكيف التربية للإنتاج بالجملة لتكنوقراط مطيعين وطيعين، لصالح تربية أخرى تنتج منشقين ومتمردين طلاب عدالة وكرامة.

تربية إنسانية تتمحور حول الفرد ورغباته والأمم وحقوقها في السيادة والاستقلال، لكبح المنطق الطاغي للعولمة الذي يقدس الربح ومراكمة رؤوس الأموال بطريقة تطوِّح بكل القيم والأساطير، وتبدد كل ما هو مقدس، وتحيله إلى هباء منثور، منطق يؤسطر القوة ويصنم السلعة، ويرفع من شأن الاستهلاك، ويعبث بالإنسان، لا يواجه إلا بمنطق ينحاز كلية للإنسان ورغباته، وللحياة وإمكانياتها، وللعالم وتعدديته، إنه منطق الرغبة التي تنتشر في جسد العالم كله لتجابه السلطة المنتشرة في كل ثنايا الوجود وتقوضها.

تربية تعيد الاعتبار لمقولات الحداثة ومناخات التحديث في مواجهة عولمة تسحق كل مكتسبات التاريخ وإنجازات البشر، تسحق الإرث التنويري، والتنوع الثقافي، ومقولات الدولة والأمة والعقل والفرد والحرية والاختلاف، عبر ولصالح تحالف عالمي لمجموعة من الشركات والمؤسسات واليمين الديني، والطغمة العسكرية تسعى بمختلف الطرق لتنميط العالم على مقاس مصالحها ورؤيتها، من خلال تفريغ العقل والثقافة من مضامينهما النقدية والتواصلية، وتحويلها إلى أدوات للقهر والمسخ، مسخ العالم، ومسخ الإنسان، إنها الصيغة المعولمة: عالم واحد تفرضه دولة واحدة ومن منظور واحد ولصالح أمة واحدة، صيغة تسعى لتبديد التنوع والثراء الإنساني لصالح ثقافة واحدة ورؤية واحدة، لتحول الأمم صوراً مشوهة عن أمة شائهة لن تنتج سوى مجتمعات ناقصة ومقاومات عنيفة وعدمية وذات طابع انتحاري.

في ضوء الرؤى السابقة المنثورة في ما رأيناه مقدمة للملف المزمع إنتاجه، نقترح محاور متعددة لملف شامل خاص بالتربية كصياغة ثقافية ووجدانية لمستقبل المجتمعات في مواجهتها لحالة العنف المعولم، لنكتب معاً في أحد المحاور التالية:

- العولمة: ماهيتها وخطورتها على شعوب العالم عامة، والشعوب الثالثية والعربية خاصة، وكيفيات مواجهتها وموقعة التربية في صميم هذه الكيفيات.
- العولمة قصة استعباد وحكاية للقهر والإقصاء، ويوتوبيات التصدي الثقافي لها، ودور المدرسة والتربية في شتل الناس بثقافة المقاومة وأحلام التغيير.
- التربية كحالة مواجهة ثقافية للسيطرة الثقافية للعولمة.
- التربية والمدرسة كساحة ثقافية للتصدي لأيديولوجيا العولمة ومفاعل رمزي يخصب الرموز الثقافية المغذية للهويات الوطنية والقومية المستهدفة من قبل إستراتيجيات العولمة.
- التربية العربية لخلق مدرسة تساهم في صيانة ذات الأمة وتتصدى لمحاولات تذريرها.
- التربية في فلسطين كحالة مواجهة مكثفة لعولمة طاغية واحتلال كولونيالي استيطاني، وكمساهمة نوعية في تنوير مشروع التحرر الوطني، والتنمية المجتمعية، والصياغة السردية والسياسية للهوية القومية والكيان الوطني.

م.ر

للاستفسار وإرسال المشاركات يرجى المراسلة على العنوان التالي:
malik@qattanfoundation.org